العجوز والوليد الجديد

ـ جئت في وقتك، لك عندي مفاجأة.

علق ساخراً، وهو يغلق وراءه الباب:

ـ ماذا؟ هل تحقق حلمك، فأنجبت على الفور ولداً؟

ردت بهدوء، وهي تسير أمامه في الممر إلى غرفة الجلوس:

ـ بل زارتنا اليوم جدتك، أوصلها ابن أخيك، قال إنها اشتاقت إليك كثيراً.

هل خرجت من القبر؟ ألم تمت بعد؟ والله نسيتها ونسيت أبي وكل أجدادي، إذن لا بد من رعايتها والسهر عليها، اليوم الطبيب وغداً الدواء وبعده المستشفى ثم المقبرة والقبر وسيارة دفن الموتى والزوار، برنامجي كله سينقلب رأساً على عقب، لماذا لا يتكفل بها أخي عصام؟ أنا تكفلت بأمه ورعيتها عشر سنين، ولم يستضفها يوماً في بيته، هو في الواقع استضافها عدة مرات، ربما ثلاث مرات، ولكن لم تكن لتقيم عنده سوى أسبوع أو أسبوعين، ثم سرعان ما كانت تعود إلي، كانت تحب أولادي، ولذلك حزنوا كثيراً

عند ما رأوا جدتهم ممدة على الفراش ميتة، أنا لا أريد لأولادي لأن يحزنوا ثانية لموت جدتي.

ينادي زوجته، وهو ينعطف في الممر نحو غرفة مكتبه:

ـ تعالي يا رجاء، لا تخبريها بمجيئي، أنا جئت مبكراً، الساعة الواحدة والنصف، وغداؤنا لا يكون إلا في الرابعة، سأرجع فوراً، لا تخبريها بقدومي.

ـ ولكنها أحست بفتح الباب وسمعت صوتك.

ـ قولي لها هذا بواب العمارة، قولي بائع الحاجات القديمة، قولي لها جامع القمامة، قولي لها ما شئت.

يدخل غرفة مكتبه، تدخل وراءه، وهي تقول:

ـ غير معقول يا صالح، تعال سلم عليها.

ـ على كل حال أنا ما جئت لأجلها ولا لأجل الغداء، سأسلم عليها ثم أخرج.

ـ لماذا جئت إذن؟

ـ اشتريت قطعة أرض بعشرة ملايين، ثمنها الحقيقي أكثر من خمسة عشر مليوناً، ولكن صاحبها مضطر إلى بيعها، ويرفض أخذ الرعبون في صك مصرفي، لذلك جئت لآخذ ثلاثة ملايين ليرة رعبوناً، وغداً أسحب من المصرف بقية المبلغ، خذي

هذا مفتاح الخزانة، اجمعي كل ما لدينا، وعدّيه، أنا سأدخل لأسلم على جدتي.

لا أكاد أصدق، حدثته منذ يومين عن المولود الذي وضعته أختي، مثل حمامة بيضاء صغيرة، جلده ناعم، مثل الدراق، تحمله تحس أنك تحمل العالم كله بين يديك، أهذا هو الإنسان؟ كتلة لحم، لايكاد يحس أو يرى أو يسمع، ثم إذا هو رجل يتاجر ويحارب ويتعلم ويجمع الأموال، كأنه تفاحة ماتزال معلقة على غصن شجرة، كم هو قريب من الله، بريء نقي طاهر، لا يعرف الكذب ولا الخداع، حدثته عنه فثار غاضباً، وصاح: «عندنا ثلاثة أولاد، هم أكثر مما كنا نريد، لا أريد المزيد»، أنا لم أقل إني أريد المزيد، أنا أعرف هو لا يريد الأولاد، منذ عشر سنوات توقفنا عن الإنجاب، هذه هي رغبته، وأنا أقدرها، بل أنا مقتنعة بها، ولكن لا أعرف لماذ أحسست بشيء آخر مختلف عندما حملت ابن أختي الوليد، شيء ما في داخلي انبثق، اضطرب صدري، رعشة سرت في كياني، اشتهيت أن أضع مولوداً مثله، لا يمكن أن أنكر، ولكن أعرف أنه لا يريد مولوداً جديداً، «يكفينا ثلاثة، يجب أن نضمن لهم المستقبل، لا بد لكل ولد من شقة وسيارة ورصيد في المصرف، هل يستطيع الواحد منهم أن يدرس ويعمل ليوفر ثمن بيت؟ يكفينا ثلاثة، والثلاثة كثير» هكذا قال لي، واليوم فقط حدثته عن حلم رأيته، فثار غاضباً أيضاً، وسرعان ما قال لي: «هذا

الحلم هو نتيجة زيارتك لأختك في المستشفى ورؤيتك الوليد وحديثها لك عن الولادة»، تفسير مقبول ولكنه غير مقنع، رأيته في الحلم هو، زوجي، رأيته يفتح شيئاً ما مغلقاً، شيئاً معتماً، مثل قبر أو صندوق، لا ليس رحماً، لم يكن رحماً، ولم يكن ثمة امرأة، ثم رأيته يخرج شيئاً ما، كأنه مولود، بدت يدا زوجي كأنهما ملوثتان بالدم، ولكن عندما رفعه إلى الأعلى كان الوليد مشوهاً، لم يكن في الحقيقة مولوداً، كان شيئاً مشوهاً، ثم استيقظت وأنا فزعة.

ويدخل عليها وهو يغمغم:

ـ ليتني ما دخلت على جدتي ولا سلمت عليها؟

وتسأله مستغربة:

ـ ولماذا؟

ـ خفت، خفت يا رجاء، أهذا هو الإنسان؟ أ هذه هي جدتي؟ كم كانت تحكي لي الحكايات؟ كم كانت تؤنسني وتسليني؟ كم كانت مرحة؟ والآن؟ لا تكاد تتكلم؟ هي مجرد كائن، جسد فقط، جسد فقط يعيش، هل هذه هي الحياة؟ أهكذا تكون النهاية؟ هل سأنزلها غداً في تلك الحفرة كما أنزلت أمي؟ ثم أضع فوقها بضع بلاطات، ونهيل فوقها التراب ثم نرجع، أهذا هو كل شيء؟ لماذا ألححت علي كي أدخل

وأسلم عليها؟ لا أريد جدتي ولا أمي ولا أريد حتى نفسي، ليتني

وتقاطعه:

- لا يا صالح، ليس الأمر كذلك، لقد خلقنا الله وحمَّلنا الأمانة ونحن نعرف لماذا جئنا وإلى أين

ويرد بسرعة مقاطعاً:

- أعرف، أعرف، لا تعلميني، ليتني ما جئت إلى البيت وما رأيت جدتي، على كل حال، هات، أين الملايين الثلاثة؟

تناوله رزم نقود، وهي تقول:

- ولكنها ناقصة، ليست ثلاثة ملايين، أنت بحاجة إلى مئتي ألف فقط لتتم الملايين الثلاثة.

- أنت لا تعرفين

يندفع نحو الخزانة الحديدية، يحني جذعه، يضم رأسه فيها، ثم ينهض، يلتفت إلى زوجته، يرفع كلتا يديه بصندوق معدني صغير، وهو يصيح.

- هنا في هذا الصندوق ما يعادل أكثر من خمسمئة ألف، ولكن بالدولار، هل رأيت، هذا هو الإنقاذ في ساعة الضيق، هذا أفضل من الولد، أخبريني: لو أنجبنا خمسة أو عشرة هل كنا نستطيع ادخار هذا المبلغ.

تنظر إلى الصندوق وهو يرفعه، تنظر إلى يديه، تراهما ملوثتين بالدم، ترى الصندوق يكاد يطير من بين يديه، يكاد يتحرك، ويرن في أذنها بكاء الوليد الذي وضعته أختها قبل يومين.

عند الباب وهو يهم بالخروج حاملاً المبلغ يسأل زوجته:

ـ هل عرفت كم ستبقى جدتي عندنا؟

ـ سيأتي ابن أخيك عصام بعد ساعة ليأخذها

ـ إذن سأرجع قبل أن يأتي، سأرجع فور دفع الرعبون وتوقيع العقد، سأحضر لها التفاح والموز، هي تحب الموز.

ـ لا تحضر أي شيء، فهي صائمة.

يتركها ويخرج، تمضي إلى الداخل.

وجه الجدة العجوز يتلألأ كأنه كوكب دري، خرزات سبحتها البيضاء تشع كالنجوم، صوتها وهي تصلي هادئ مثل همس الملائكة، يدها رقيقة مثل الغمام، جلدها ناعم مثل ورقة ورد، تدنو منها تأخذ يدها، ترفعها إلى فمها، تلثمها، تتلمس الجلد الناعم، تودّ لو تحمل العجوز بين يديها، تحتضنها، كما حملت بالأمس ابن أختها الوليد.